



قد ترجمه الاستاذ صروف بقوله ، انها كانت عملاً ذا شأن
خطير ، أما سبب هذا الخطر وهو طبيعتها وصفتها الرسمية فلم يعن
المترجم ببيانها كما بينه المؤلف
(٤) ومن العبارات التي أغفلها المترجم قول المؤلف في موقف
اسماعيل من السير صمويل بيكر

His good faith cannot be successfully attacked,
for his agent's field of operation was several
thousand miles south of Cairo. In the territory
over which he was appointed, the Englishman was
lord and master.

وكل هذه معان لها قيمتها لم يذكرها المؤلف عبثاً ، وليس
فيها شيء من الصعوبة ، ولكن الأستاذ حذفها كلها

(٥) وترجم الأستاذ عبارة Legitimate commerce بقوله
التجارة المنظمة مع أن معناها التجارة المشروعة ؛ والفرق بين المعنيين
كبير لأن النخاسة قد تكون تجارة منظمة . أما التجارة المشروعة
أو المباحة فلا يمكن أن تشمل تجارة الرقيق

(٧) ثم لينظر القارئ معناه إلى هذه العبارة التي يصف بها
المؤلف عمل المراجعين الذين جاؤوا لفحص حسابات اسماعيل

Auditors, as a rule, are as cold as fishes. The
human equation means nothing to them. They have
but one mandate. It is a mission of heartless
scrutiny. Tangible assets and liabilities, real or
potential, are the only things that interest them.

ولينظر بعد ذلك إلى ترجمة الأستاذ صروف التي يقول فيها
، إن فاحصي الحسابات (المراجعون) لا يهتم عادة إلا لفحص
ما يقدم إليهم من سجلات ودفاتر ومن مستندات الديون التي هي
للغير أو على الغير ،

ونحن إذا تجاوزنا عن أسلوب هذه العبارة نرى أنها لم تؤد
إلا جزءاً يسيراً من معاني العبارة الإنجليزية . قد يكون في هذه
العبارة الإنجليزية شيء من الصعوبة ولكن هذه الصعوبة هي محك
القدرة على الترجمة وإلى الأستاذ ترجمة لهذه القطعة جامعة لكل
ما فيها من المعاني :

اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كرتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ النعيمي

— ٥ —

نستطيع أن نفهم أن المترجم قد يخطئ في عبارة صعبة غامضة
المعنى ، ولكن الذي لا نستطيع أن نفهمه أن يعتمد المترجم على
عبارة سهلة واضحة المعنى فيستبدل بمعناها معنى آخر من عنده بعيد
كل البعد عن المعنى المراد

(١) أنظر إلى قول المؤلف عن موقف اسماعيل من السخرة

Ismail's attitude towards the corvée was not a
fleeting fancy.

فهل في هذه العبارة غموض يجيز للأستاذ صروف أن يترجمها
بقوله : إن موقف اسماعيل بأزاء السخرة لم يكن يقصد منه
التظاهر ، من أين جاء الأستاذ بالتظاهر . إن المعنى الذي لا ينبغي
على إنسان هو لم يقف اسماعيل موقفه من السخرة لفكرة عارضة
زائلة ،

(٢) ومن هذا النوع أيضاً العبارة الآتية التي تبين الأثر الذي

انطبع في ذهن اسماعيل حين رأى صمويل بيكر لأول مرة

Ismail became impressed with his vigorous
personality.

والتي ترجمها الأستاذ صروف بهذه العبارة الغامضة و وقع
عنده موقفاً حسناً ، فأين ذلك من قول المؤلف أن اسماعيل قد
أعجب بشخصيته القوية أو أثرت فيه شخصيته القوية

(٣) ولا يختلف عن ذلك ما ترجم به الأستاذ صروف

وصف المؤلف لحمة بيكر الذي يقول فيه

The official nature and character of which
made it an undertaking of considerable importance

ذكر المؤلف ذلك في الفقرة السابقة لهذه العبارة المنقولة من كتاب السير صمويل .

(٩) هل سمع القارىء أن كلمة :

Unsuspecting villags

معناها « القرية المفصودة » هذا ما ترجمها به الاستاذ صروف بدل القرية الآمنة أو العائلة عما يراد بها .

(١٠) وقال المؤلف عن العقد الذى كان بين بيكر واسماعيل باشا

It appears that he drafted the contract which defines his relations with the Viceroy.

أليس المعنى الذى يفهمه كل إنسان من هذه العبارة هو :

ويلوح أن (السير صمويل بيكر) هو الذى كتب صورة العقد الذى يحدد علاقته بالوالى . لكن الاستاذ لم يفهمها كذلك بدليل أنه قال فى ترجمتها « ويظهر أنه كان بينه وبين الخديو عقد لتنظيم علاقته به ، وهذا ما لم يقله المؤلف ، فان وجود العقد لا شك فيه كما قال ذلك بصريح العبارة بعد سطر واحد من هذا الكلام ولكن الذى لم يتأكد منه هو أن كاتب هذا العقد هو السير صمويل بيكر .

(١١) وقال المؤلف يصف صعوبة نقل المؤن والذخائر

والسفن من مصر إلى السودان

It had to be delivered at so great a distance and transported by sea-going steamers, river boats and camel back.

فترجم الاستاذ صروف ذلك بقوله « كان يجب نقلها مسافات شاسعة جدا ، وأين بقية المعانى ؟ أين طرق نقلها - البواخر البحرية والقوارب النهرية وظهور الابل ؟

نكتفى بهذه الأغلاط من الفصل الخامس لننتقل إلى الفصل

السادس لنبدأ بهذه الغلطة التى لا يصح أن يقع فيها مترجم .

(١) قال المؤلف عن الرجال الذين صحبوا بيكر فى رحلته

It had for its heroes the two Bakers uncle and nephew, Abdel Kader, the Muslim, Mansur the Copt and every man of that élite corps etc.

أيدرى القارىء ماذا قال الاستاذ صروف ؟ قال : « أبطالها

السير صمويل بيكر نفسه وابن أخيه وأتباعه عبد القادر ومسلم ومنصور ورجل قبلى وطائفة من الأتباع والانتصار . إنا كلما أمعنا فى قراءة الكتاب زادت شكوكنا فى أن الاستاذ صروف

قد ترجمه بنفسه أو اطلع على الترجمة ، وإلا فهل كان يخفى عليه

أن معنى العبارة هو : « أبطالها السير صمويل بيكر وابن أخيه

وعبد القادر المسلم ومنصور القبلى وكل رجل من هذه الطائفة

المصطفاه : قد يظن الاستاذ صروف أن الشولات تجيز له أن

« إن المحاسبين فى العادة لا قلب لهم ، وليس لهم شان باحساس

الناس وعواطفهم ، ولا يضعون نصب أعينهم إلا غرضا واحدا هو

البحث والتدقيق ، لا تأخذهم فيه هواة . وكل ما يعنون به هو ما للشخص

وما عليه سواء أكان ذلك حقيقة حاضرة أم تقديرا مستقبلا

(٧) هل يصدق القارىء أن الاستاذ صروف قد ترجم

Before he left for the Sudan on his first mission

بقوله « قبل مغادرته السودان فى مهمته الأولى » وهل يمكن أن

لا يعرف الاستاذ صروف أن Left for معناها « سافر إلى »

لاغادر ؟ وأين كانت مهمة غردون الأولى التى سافر إليها من

السودان ؟

إنا لانكاد نصدق أن الاستاذ صروف قد ترجم هذه العبارة

أو اطلع عليها وعلى الأصل بعد الترجمة

قال المؤلف فى الأموال التى أنفقها إسماعيل فى حرب الرقيق

Even if such considerations as these may perhaps tend to warrant the blotting out from the « moral principle » balance sheet of the money spent by Ismail etc.

فقلب الاستاذ صروف معنى هذه العبارة إذ قال : « ومع أن

الاعتبارات المار ذكرها قد تسوغ انفاق اسماعيل للبال الخ ، مع

أن الترجمة الصحيحة هى : وحتى لو كانت هذه الاعتبارات كلها تبرر

اغفال الأموال التى أنفقها اسماعيل وتيجن محوها من سجل أعماله

الأدبية الخ ، وما أكبر الفرق بين المعنيين !

(٨) وقال المؤلف فى تقديره الأموال التى أنفقها اسماعيل

فى محاربة النخاسة

In order to estimate what this X may possibly amount to, it is well to recall etc.

فلم ير الاستاذ صروف أن يترجم هذه العبارة بأكثر من قوله

« ولا يعزب عن البال ، والاستاذ مولع بمثل هذه العبارة المبهمة

فقد تكررت هى ولفظ « وعليه » أكثر من مرة بدل جمل طويلة

ذات معان كثيرة فى الأصل الانجليزى

(١٠) ويقول القاضى كريتس إن قناصل أوروبا وأمريكا

كانوا يجمعون تجارة الرقيق ، وإن السفن التى كانت تحمل العبيد كانت

ترفع الراية الأمريكية ثم يقول بعد ذلك :

Thus secured from interference by the Consuls of Europe and America etc.

فقال الاستاذ صروف فى ترجمتها إنهم كانوا يأمن من تعرض

قناصل أوروبا وأمريكا ، مع أن المعنى الحقيقى أن « قناصل أوروبا

وأمريكا كانوا يجمعون هؤلاء التجار من أن يتعرض لهم أحد .

الأستاذ ظن أن discretion مشتقة من لفظ secret فترجم العبارة كلها بقوله : « إنى أعتمد على حيك وإخلاصكم ومراعاتكم لشروط الكتابان ، فقير بذلك المعنى وأفسد الأسلوب

(٧) وقال المؤلف يعلق على تعيين الجنرال استون رئيساً لطينة أركان حرب الجيش المصرى

This designation meant more than the . . .

وهى عبارة طويلة ترجمتها بالضبط ، وكان لهذا التعيين معنى أبعد من مجرد : إختيار مت ، ولورنج ، وسبلى لجيش الوالى كان يحوى كثيراً من الضباط الأجانب . لقد كان إختيار هذا الضابط الأمريكى لذلك المنصب ثم إختيار عدد كبير من بنى وطنه معه ذا معنى خاص . كان إيدانا بانقضاء عهد السيادة الفرنسية على مصر ولم يكن معناه أن إنجلترا سكسونيا قد خلف غالباً (فرنسيا) أو أن الصقلي والتبوتونى قد ضعف أمرهما معا . لم يكن معناه ذلك بل كان معناه أن عهداً جديداً قد طلع على مصر وأن إسماعيل قد حرر بلاده من القيود الأجنبية واعترّف أن لا يكون لأحد سلطان عليه : نعم إنه استعان بالأمريكيين ولكن أحداً لا يجهل أن الولايات المتحدة لم يكن لها مطامع إستعمارية فى مصر أو فى إفريقيا

ثم انظر بعد ذلك إلى ترجمة الأستاذ ، وكان لهذا التعيين معنى أبعد من تعيين سائر الضباط الأجانب فى جيش الخديو إذ كان نذيراً بانتهاء السيادة الفرنسية ويده عهد جديد تتمتع فيه مصر باستقلالها ويصبح فيه الخديو سيد نفسه . وما أعان على تحقيق ذلك ما يعرفه الخاص والعام من أن الولايات المتحدة كانت منزومة عن كل غرض إستعمارى أو غاية أمريكية إستية فى مصر وإفريقية . لو أن الأستاذ كان يخلص الكتاب لجازله أن يقول هذا القول على ما فيه من تغيير واختلاف عن قول المؤلف ؛ أما الترجمة فلا يجوز فيها هذا . وقد حذفنا أصل هذه الفقرة الإنجليزية لأنه يشغل عموداً كاملاً من الرسالة فليرجع إليه القارى إن شاء وتؤكد له أنه يظابق ترجمتنا مطابقة تامّة

(٨) هل يصدق القارى أن الأستاذ صروف يقول « وفى وسعدنا أن نخمن على تلك الأعمال ، ترجمة لقول المؤلف

But the total of this outlay can be surmised.

الذى معناه « أننا نستطيع أن نتصور مجموع هذه المبالغ بوجه التقريب الخ ،

ولنكتف بهذا القدر اليوم وموعداً العدد القادم إن شاء الله الغنى

يفهما كما فهمها ولكن ذلك ظن غير صحيح فبعد القادر هو المسلم ومنصور هو القبطى مهما وضّح بينها من شولات (١) وقال المؤلف فى هذا المعنى نفسه :

Its brigands become saints.

فقال المترجم « لصوصها الذين تحولوا إلى الشهامة ، وهى عبارة لا معنى لها ولا تدرى لم لم يترجمها الأستاذ كما هى ليفهمها الناس فيقول « لصوصها الذين عدوا (أو أصبحوا) فيما بعد قديسين ، (٣) وقال المؤلف يصف حفلة رفع العلم المصرى على البلاد التى فتحها يكر

The troops formed three sides of a square.

فقال الأستاذ صروف « ووقف الجنود بشكل ثلاث أضلاع من أضلاع مربع مستطيل ، ولاندرى ما هو هذا المربع المستطيل ولا من أين جاء الأستاذ صروف بلفظ مستطيل التى أفسدت المعنى (٣) وقال إسماعيل فى عهده إلى السير صمويل يكر وهو ذاهب لمحاربة الرق

You will in a short time get the natives to replace an illegitimate interest by a legitimate one. فقال الأستاذ صروف فى ترجمة الجملة المقولة عن وثيقة رسمية عظيمة القيمة : « فتجذب إليك القبائل ، فإن هذا من معناها الحقيقى وهو « أنك لا تلبث أن ترى الأهلىن يستبدلون بعملهم المحرم عملاً مشروعاً ،

(٤) وقال المؤلف عن غردون وإسماعيل

Two English gentlemen who would not give their friendship and confidence to a bad man.

ومعنى ذلك أنهما « من أشرف الإنجليز الذين يرضون بصدقتهم وثقتهم على أشرار الناس ، ولكن الأستاذ صروف يترجم ذلك بقوله « وما كانا ليفرطاً فى صداقتهم ،

(٤) هل معنى Great profits « بعض الأرباح ، أو معناها أرباحاً عظيمة

(٥) وقال المؤلف فى معرض كلامه عن الضباط الأمريكىين الذين استخدمهم إسماعيل

Blue book material cannot be found to bear out these statements.

وهى عبارة معناها « لا توجد كتاب زرقاء تؤيد هذه الأقوال ولكن المترجم لسبب ما ترك هذه العبارة من غير ترجمة (٦) وقال إسماعيل فى خطابه إلى رئيس الضباط الأمريكىين

I count upon your discretion, devotion and zeal.

معناها أنى أعتمد على حكمتك وإخلاصك وغيرتك ، ولكن

(بقية المنشور على صفحة ٨٠٢)

بين القديم والجديد ، وهم الذين يرجع إليهم في مثل هذه المشكلات .
أرأيت أن كلمة واحدة من هذا العنوان قد أثار كل هذه
الأبحاث التي أوامت إليها إيمان ، فكيف بكلاته الأخرى إذا
لوحظت مفرقة وإذا لوحظت بجموعه . والشيء الذي ليس فيه
شك هو أن هذا العنوان سيضمن لك شيئين : الأول أنه إعلان
سيمجج القراء ويروقهم ، بل سينبهرهم ويروعهم ، وسيدعوم إلى
شراء الكتاب والترجيع له عند الأصحاب والأصدقاء . ولعله
يروق في رزارة المعارف وأنت أعلم بما وراء ذلك من المنافع التي
لا نحصى . والشيء الثاني أن هذا العنوان سيرسم لك برنامج
الكتاب وبممكنك من تربيته في غير مشقة ولا عسر . ولا تكلف
نفسك ترورية ولا تفكيراً ، ولكن خذ كلمات هذا العنوان واجمل
منها عنوانات لأبحاثك فسرى أن كتابك قد بوب بإذن الله . فليكن
موضوع الباب الأول إذن هو البحث عن كلمة الكتاب مم اشتقت ،
ومن أين أخذت ، وما معانيها المختلفة التي دلكت عليها في العصور المختلفة
والبيئات المتباينة . ولا تخف أن يقال لك إن هذا استطراد وإطالة
وتزديد في القول ، فلولا الاستطراد والإطالة والتزديد في القول لذهب
أكثر العلم أو أكثر الأدب على الأقل . ولك في اجاظر أسوة حسنة
فهو قد أطل في ذكر الكتاب حين أراد أن يؤلف في الحيوان .
وقد ألف أرسططاليس من قبله في هذا الموضوع فأثر الإيجاز
واجتنب الاستطراد وكانت النتيجة إن الناس جميعاً يقرأون كتاب
الجاظر وليس منهم من ينظر في كتاب أرسططاليس ، لأن كتاب
أرسططاليس علم وقد غير علم الحيوان ، وكتاب الجاظر أدب وتلما
يتغير الأدب ، ولا سيما حين يمتاز بالإطالة والاستطراد . ونحن
في كلية الآداب لا نبدأ دروس الأدب حتى نعلم الشبان علماً كثيراً
عن لفظ الأدب ومعانيه ، فسر سيرتنا ولا بأس عليك . وإذا فرغت
من هذه الأبحاث القيمة التي لا تتصل ولا يجب أن تتصل
بالموضوع ، فخذ بعد ذلك في بحث يكون صلة بينها وبين الموضوع
وهو إضافة الكتاب إلى الإرشاد والصلة بينه وبين الجراد . وكيف
تختلف الكتب باختلاف أصناف الناس ، وكيف تختلف الكتب
باختلاف أنواع الحيوان ، لأم من جهة موضوعها وأسلوبها حسب ،
بل من جهة أحجامها وقطعها أيضاً ومن جهة مادتها التي تطبع
وتداع فيها ، ومن جهة الخط والحروف التي تستخدم في هذا الطبع ؛
فانواع الطبع تختلف باختلاف القراء في القدرة والذوق ، وكذلك
الأحجام ، وكذلك مادة الورق والغلاف ؛ ويجب أن يطرد هذا
بالقياس إلى الحيوان وبالقياس إلى الجراد خاصة ، وواضح جداً
أن هذا سيذهب بك في ألوان من البحث الطريف الذي لم تسبق
إليه ؛ فإذا فسرت آراءك ببعض الصور فتق بانك ستحدث في عالم
التأليف حدثاً عظيماً ، وثق بانك ستفتح للجنة الترجمة التأليف والنشر

بعنوانه ، ولكني أعتقد أن عنوان الكتاب يوبه وينظمه ، ويلائم
بين أجزائه ويشجع فيه هذه الموسيقى التي تحبب إلى النفوس وتغري
به عقول القراء . وأول ما يجب من العناية بالعنوان فيما أرى
أن نذهب به مذهب القدماء الصالحين ، فلا نرسله إرسالاً ولكن
تقيده بالسجع ، لأن إرسال الأشياء في غير قيد يمكنها من أن تهيم
على وجهها وتطلق في غير وجه ، وتكون كالجراد هذا الذي لا يستقر
على سنبلة أو كوز إلا ريثما ينتقل إلى سنبلة أو كوز . فإذا أردت
يا صديقي أن تضع كتاباً فلا تفكر في موضوعه ولا في أجزائه
ولا في أبوابه وفصوله ولا في غاياته وأغراضه ، فهذا كله يأتي
وحده دون أن تدعوه أو تلج في دعائه بالعناية أو التكسير ، إنما
الشء الذي يجب أن تفق عليه جهدك ، وتفقد فيه رقتك ، وتستنفد
فيه قوتك ، هو العنوان ، والعنوان المقيد المسجوع . ويشهد بذلك
تراثنا الأدبي العظيم الذي إن أحصيته وجدت أكثره قد قيد
بهذه العنوانات المسجوعة ؛ ويشهد بذلك صديقتنا الزيات فقد
كانت لنا معه جولات قيمة خصبة أيام الشباب في هذا الفن الذي
لا يحسنه إلا قلوب ؛ ويشهد بذلك صديقتنا محمود حسن زياتي الذي
كان أستاذنا في هذا الفن العجيب . لذلك لم أكد أختار هذا
الموضوع للحديث حتى فكرت قبل كل شيء في عنوان الكتاب
الذي ألفت ولم تنبئ منه إلا بطرف يسير قصير . وقد سميت هذا
الكتاب كتاب الإرشاد إلى فلسفة الجراد . وأخص ما يمتاز به
العنوان البارح أن يراه القارئ فيظنه واضحاً جلياً ، فإذا رآه
الاحصائي تبين فيه ألواناً من التموض وفنوناً من الغرابة تحتاج
إلى الشرح والتفسير ، وإلى الحاشية والتقرير . ولا شك في أن المثقفين
من قراء الرسالة سيرون هذا العنوان سهلاً سائفاً وقریباً داتياً .
ولكن أصحاب البيان والراسخين في علم التأويل سيلاحظون
أن كلمة الفلسفة هنا قد استعملت في غير معناها الحقيقي المعروف ؛
فليس للجراد فلسفة ؛ والدليل على ذلك أنك تريد أن تعلمه الفلسفة ،
وإذن قد يقال إن في هذه الكلمة مجازاً مرسلًا لأن المؤلف أراد
فلسفة الجراد باعتبار ما سيكون ، لأن الجراد إذا قرأ كتابك إن شاء
الله تهذب وتادب وصارت له فلسفة . ولكن ليس هذا هو الذي
أراد المؤلف ، فقد يكون أراد شيئاً آخر ، وهو أن للجراد الآن
فلسفة جرادية يراد أن يعدل عنها إلى الفلسفة الإنسانية . وقد يكون
المؤلف أراد بالفلسفة المصدر أي جعل الجراد فيلسوفاً يقال فلسفت
الشء جعلته فلسفياً ، وفلسفت الإنسان جعلته من أصحاب الفلسفة ،
وفلسفت الجراد جعلته مفلسفاً . ولا تبحث عن هذه الكلمة في
المعاجم العربية القديمة ، فقد لا تظفر في هذه المعاجم بشيء ، ولكن
ابحث عن هذه الكلمة عند الفلاسفة في كلية الآداب فهم الذين يلائمون

أبوأبا لن تردد في ولوجها ولكننا لن نعرف كيف تخرج منها . ثم دع هذا الباب إلى الباب الثاني واجعل عنوانه الارشاد واسلك في هذا الباب مسلكك في الباب الأول ، فخضع لفظ الارشاد ومعانيه لكل هذه التجارب التي اخضعت لها لفظ الكتاب ومعانيه ، ثم ابحث عن ارشاد الجراد كيف يكون فاعقد فصلا تصور فيه مذهب الذين يرون أن الجراد يفهم بالعقل وبين كيف يكون إرشاده على هذا النحو ، واعقد فصلا آخر تصور فيه رأي المحدثين الذين يرون أن الجراد يفهم بالغم والبطن وبين فيه كيف يكون ارشاد الجراد من طريق الأفواه والبطون . والناس كما تعلم يختلفون في هذا الموضوع ، ومنهم من يرى أن تكتب أصول الفلسفة على أوراق الأشجار والنجوم والزرع التي يجربها الجراد ويميل إلى أكلها ويقولون إن الجراد إذا أكل هذه الأوراق الفلسفة فهم العلم ووعي الحكمة وأصبح فيلسوفاً باذن الله .

ثم اجعل الكلمة الثالثة عنوانا للباب الثالث وهي إلى . ولا بد من أن تبحث عن السبب في ان الارشاد يتعدى إلى ولا يتعدى غيرها من حروف الجر ؛ ولم لا يقال كتاب الارشاد لفلسفة أو بفلسفة أو في فلسفة أو من فلسفة أو عن فلسفة أو على فلسفة الجراد . وواضح أن كل حرف من هذه الأحرف سيحتاج إلى فصل مطول جدا وستجد في كتاب المغني لابن هشام ما يعينك على تحرير هذه الفصول . ولا تخف من هذه الاطالة فانها هي التي ستفعلك وتروج كتابك عند أصدقائنا الأزهريين . ثم إذا أردت ، ان يروج كتابك عند الجامعيين وفي كلية الادب خاصة فاحسن عنايتك بالباب الرابع وهو باب الفلسفة وهو اللب الأول للكتاب ، لأن الأبواب التي سبقت كانت قشورا ولكنها كانت قشورا لا بد منها ، فكل لب يحتاج إلى قشر وإلا لما كان لباً . فابحث الآن عن الفلسفة وعن أصل لفظها واحذر أن تقول إنه يوناني فقد يكون هذا مطابقاً للحق ، ولكن الحق في هذه الايام لا يعني عن البدع شيئا . والبدع في هذه الايام ان تخرج الأشياء عن أصولها وتوضع في غير مواضعها وترد إلى غير مصادرها . والظاهر أن كلمة الفلسفة ترجع إلى أصل سامي عربي ، وما أشك في أنك ستجد في شعر قصاعة بيتا يثبت لك وللناس جميعا ان العرب قد عرفوا الفلسفة واستعملوا لفظها قبل ان يولد سقراط . ولا بد أن تعرض معاني الفلسفة ومذاهب الفلاسفة في العصور المختلفة وتبحث عن أيها أدنى إلى الجراد ، إلى عقله إن كنت من أنصار العقل ، وإلى بطنه إن كنت من أنصار البطون . فاذا فرغت من هذا البحث الهائل الخيف وصلت إلى الباب الاخير الذي هو نتيجة النتائج وجوهر الجواهر وأصل الاصول وفصل الفصول وخلاصة الكتاب ولب الأبواب وهو باب الجراد الذي وجه إليه الارشاد .

وهذا الباب معقد بطبعه فلا بد من أن تبحث عن لفظ الجراد من أين جاء وإلى أين انتهى ، ولا بد من أن تبحث عن منزلة الجراد بين أنواع الحيوان ، ولا بد من أن تبحث عن محاسنه وعيوبه ، ثم لا بد من أن تبحث عن عقله وما يكونه من الملكات وعن بطنه وما يمتاز به من الحاصل في الاستيعاب والهضم وتصريف العلم والفلسفة إلى أجزاء الجسم وأطرافه والوصول آخر الامر إلى أن يسير الجراد سيرة فلسفية صالحة . فاذا وصلت إلى هذا الموضوع من كتابك وخيل إليك أنك قد انتهيت به إلى غايته وأقدت العلم فائدة محققة تمكك من نيل الدكتوراه من كلية الاداب فعد إلى منهج ديكارت وألغ هذا الذي كتبته كله إلغاء ، وافترض أنك لم تكتب شيئا ولم تعلم شيئا واستأنف البحث من جديد فسترى أنك قد أضعت وقتك في غير نفع ، وأنفقت جهدك في غير طائل ، واستهلكك راحتك وورقتك وحبرك واقلامك في غير غناء ، لأن الجراد ليس في حاجة إلى أن يتعلم الفلسفة الانسانية الان ، فقد تعلمها منذ عهد بعيد ؛ فهو إن كان ناهبا ساليا ومغيارا محاربا فقد أخذ ذلك عن الانسان . وهل زاد الانسان على أنه حيوان قوام حياته السلب والنهب والحرب ؟ وهو إن كان خفيفا سريعا متقللا لا يستقر على حال من القلق فقد أخذ ذلك عن الانسان . وما أظن أنك تستطيع أن تلقى جرادة تجهل قول الشاعر القديم :
تقل فلذات الهوى في التنقل
وهو إن كان مفتنا في الخفة والتقل فقد أخذ هذا الاقتان عن الانسان ، لانه يراقب الحضارة وتطورها ، ويراقب المبادئ وتلونها ، ويراقب اضطراب الناس في آرائهم وأهوائهم ومذاهبهم ومبادئهم ، ويراقب الضمائر التي تباع ، والعقول التي تمتحن ، والحريات التي تزدرى ، والأصول التي تتخذ تجارة ووسيلة إلى الربح وتحقيق المنافع الدنيئة . وقد هم الجراد أن يقلد الانسان في هذا فادركته بقية من عقله أو من بطنه الذي تستقر فيه الفلسفة وامتنعت به عن أن ينحط إلى هذه القرارة الحقيرة المويبة التي انحط اليها الانسان الحديث ، فظل حيث هو يغير كريما لياكل من ثمرات الأرض ما يستطيع أن يصل إليه ، ويعود كريما ان استطاع العودة أو يموت كريما بما ينلظ عليه الانسان من ألوان الباس وضروب الفناء . وأنت حين تصل إلى هذه النتيجة بين اثنتين : فان كنت من أنصار الفساد وعشاق الانحطاط الذين يرون أن الانسان قد وصل في هذا العصر إلى أرق أطوار الحضارة فاستأنف العمل لتبحث عن طريق تهدي بها الجراد إلى تقليد الانسان في الانحدار إلى هذه القرارة ، وإن كنت من المحافظين الذين يكرهون التطور الحديث ويمقتون نتاجه فادع الانسان إلى أن يتعلم فلسفة الجراد وضع في هذا كتابا اسمه : (التيان عن مجرد الانسان) والتجرد هنا مشتق بالطبع من الجراد . وتقبل بها الصديق العزيز المجهول أخلص تيماني طه حسين